

Cooperation in Arab Society

التعاون في المجتمع العربي

Salah Fayyad^{1*}.

¹Yarmouk University, Irbid, Jordan.

ARTICLE INFO

Article history:
Received 13 Apr 2019
Accepted 13 Jun 2019
Published 01 Oct 2020

*Corresponding author:
Yarmouk University, Irbid, Jordan.
Email: aofayyadsalah@gmail.com.

Abstract

This study aimed to clarify the concept of cooperation in Arab society and the development that has occurred due to changes in its social structure resulting from the introduction of Islam. Values, morals, and principles differed and evolved toward progress, which significantly influenced the nature of cooperation within the society. In the pre-Islamic era, harsh environmental conditions compelled individuals to cooperate and work together to meet their needs. With the arrival of Islam in this society, cooperation became a dominant feature in all circumstances and conditions. This is rooted in the belief that cooperation is a divine obligation and a commendable Sunnah enjoined by the Prophet, may God bless him and grant him peace. This understanding of cooperation has been reflected in the thought of Muslim scholars, including Ibn Khaldun and Al-Ghazali. The research concludes that the development of cooperation fundamentally depends on the society in which it is practiced and the conditions of life within that society. It has been shown that, before Islam, cooperation in Arab society was a necessary response driven by need. In contrast, within the Islamic community, cooperation transcended mere necessity to include goals related to both worldly benefits and spiritual aspirations. It moved beyond survival and hardship to the stage of economic prosperity, a key objective of societal development. Muslim scholars such as Al-Ghazali and Ibn Khaldun advanced cooperative ideas, especially in the field of division of labor, which enlightened their understanding of social harmony and progress.

Key words: Cooperation, Arab Society, Muslim Scholars.

المخلص

هدفت هذه الدراسة إلى توضيح صورة التعاون في المجتمع العربي، وما طرأ عليه من تطور نتيجة اختلاف التركيب الاجتماعي في هذا المجتمع بسبب دخوله في الإسلام؛ فاختلفت القيم والأخلاق والمبادئ وتطورت نحو الرقي، فكان لذلك أثر واضح في التأثير على الجانب التعاوني فيه، فقد فرضت الظروف البيئية الصعبة على الإنسان في العصر الجاهلي أن يتعاون ويتكافل مع غيره من أجل سد احتياجاته، وبدخول الإسلام إلى هذا المجتمع أصبح التعاون هو السمة السائدة فيه في جميع ظروفه وأحواله؛ كون التعاون مطلب إلهي وسنة حميدة أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وبرز هذا التعاون

في فكر علماء المسلمين منهم: ابن خلدون والغزالي. خلصت هذه الدراسة إلى أن تطوّر التعاون يرتكز في جوهره على المجتمع الذي يمارسه وعلى ظروف الحياة التي يعيشها هذا المجتمع، وتبين أن التعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام هو تعاون ضروري فرضته الحاجة، أما التعاون في المجتمع الإسلامي فله غايات وأهداف دنيوية وأخروية تعدت فيها مرحلة الضرورة إلى مرحلة الرفاه الاقتصادي الذي يعد هدف من أهداف المجتمع الاقتصادية، وكان لعلماء المسلمين مثل الغزالي وابن خلدون أفكار تعاونية يستلزم بها وخصوصاً في مجال تقسيم العمل.

الكلمات المفتاحية: التعاون، المجتمع العربي.

١. المقدمة

التعاون هو غريزة فطرية لدى لإنسان ظهرت هذه الغريزة نتيجة الحاجة التي أملتتها ظروف الحياة البيئية والاجتماعية والاقتصادية من أجل إشباع الحاجات الانسانية، ويعد المجتمع بكافة أطرافه وتفصيلاته عنصر أساسي من عناصر تكوين هذا التعاون وتطوره، وكان للمجتمع العربي يداً في هذا التكوين والتطور، بدءاً بنماذج التعاون قبل الإسلام ومروراً بالتعاون في المجتمع الإسلامي وما قدمه علماء المسلمين من أفكار في مجال التعاون الانساني وتطوره.

١,١,١ الدراسات السابقة

هدفت دراسة السبير (٢٠١٢) إلى بيان مفهوم النظرية الفقهية ونشأتها والفرق بين النظرية الفقهية وغيرها؛ من قواعد اصولية وقواعد فقهية وضوابط فقهية، كما بينت مفهوم نظرية التعاون من خلال تعريف التعاون، وبيان أدلته والأصول النازمة له. كما تناولت الدراسة خصائص نظرية التعاون والقواعد الفقهية ذات العلاقة بنظرية التعاون؛ كقاعدة المشقة تجلب التيسير، وقاعدة اليقين لا يزول بالشك، وقاعدة الضرر يزال وغيرها، وبينت الدراسة أثر نظرية التعاون في النظريات الفقهية؛ فيظهر أثرها في نظرية العقد؛ تمنع العقد القائم على المخالفة، كما في بيع السلاح لقطع الطريق وبيع العنب للخمر قصداً. وخلصت الدراسة إلى استناد نظرية التعاون إلى الكتاب والسنة والاجتماع والمعقول، وأن للنظرية أصول نازمة من مبادئ وقواعد كلية، وأن لها الأثر الأكبر في المجتمع لما لها من بعد أخلاقي واجتماعي

هدفت دراسة بني عايش (٢٠١٢) إلى بيان معنى العون الإنساني والألفاظ ذات الصلة: العمل الخيري، العمل التطوعي، التكافل الاجتماعي، وعرفت الدراسة على فئات استحقاق العون الانساني؛ كالفقراء والأيتام واللقطاء، وبينت الدراسة الموارد المالية الواجبة والتطوعية للعون الإنساني. وخلصت الدراسة إلى أن العون الإنساني ينطلق من دوافع عقائدية وأخرى انسانية، وأن جميعها ثابت بالكتاب والسنة وهو جزء لا يتجزأ من الدين الحنيف، وهو شامل لكل نواحي الحياة، وتعد النفقات الواجبة هي مورد رئيسي للعون الإنساني.

وتتمثل الإضافة في هذه الدراسة:

- بيان دور التطور التاريخي والتكوين الاجتماعي في تكوين الفكر التعاوني وتطوره.
- عرض لنماذج تاريخية للتعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده وتحليلها.
- إيراد الافكار التعاونية عند العلماء المسلمين في المجال التعاون وتحليلها.

٢. مشكلة الدراسة وأسئلتها

تختلف اشكال وانواع التعاونيات باختلاف المجتمعات التي تعيش فيها؛ حيث إن للمجتمع والتاريخ دور أساسي في تكوين الواقع، ويعد الجانب التعاوني جزء من هذا الواقع بما تمليه عليه الظروف التاريخية والبيئية والاجتماعية، لذلك جاءت هذه الدراسة لتعالج المشكلة الرئيسية المتمثلة بتأثر التعاون بالتغير التاريخي والبيئي والاجتماعي وتطوره ومن هذه المشكلة تنشأ عدة أسئلة.

٢,١ أسئلة الدراسة

١. ما هي أبرز صور التعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام وتطوره؟
٢. ما هي أهم المبادئ التعاونية في الإسلام؟

٣. ما هو دور علماء المسلمين في إبراز الفكر التعاوني؟

٣. أهمية وأهداف الدراسة

٣,١ أهمية الدراسة

إن دراسة التعاون في المجتمع العربي ترتبط بدراسة تاريخ هذا المجتمع؛ كون التاريخ أحد أبرز العوامل التي تؤثر في تكوين الواقع التعاوني وتطوره، وقد اختلف دوره وأثره باختلاف المجتمعات التي تحكمه.

حيث تنبع أهمية الدراسة من عدة جوانب منها:

١. التعاون له دور بارز في النشاط الاقتصادي والاجتماعي ينعكس أثره بشكل ايجابي على افراد المجتمع.

٢. تطور التعاون وتميزه يتبع ظروف الحياة وطبيعة المجتمع الذي نمى وترعرع فيه سلباً أو ايجاباً.

٣,٢ أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١. التعرف على دور المجتمع العربي قبل الإسلام في مجال التعاون.

٢. إبراز أهم المبادئ التعاونية في الإسلام.

٣. الوقوف على بعض أفكار العلماء المسلمين في المجال التعاوني.

٤. منهجية الدراسة

أولاً: المنهج الاستقرائي والتاريخي: حيث سيتم دراسة الموضوع من خلال تتبع مفردات الدراسة ومسائلها والحقائق المرتبطة بموضوع الدراسة من الكتب والمراجع المتخصصة.

ثانياً: المنهج الوصفي والتحليلي: الذي يعتمد على الوصف والملاحظة، ثم تشخيص الوصف لتسهيل عملية التحليل والوصول إلى النتائج المرجوة.

٥. خطة الدراسة

تم تقسيم البحث الى مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة، حيث تناول المبحث الأول التعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام، وفي المبحث الثاني تناول المبادئ التعاونية في الإسلام، وفي المبحث الثالث: تناول الفكر التعاوني عند ابن خلدون والغزالي.

– المبحث الأول: التعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام

– المطلب الأول: التعاون عند الأحناف

– المبحث الثاني: التعاون في المجتمع الإسلامي.

– المطلب الأول: التعاون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

– المطلب الثاني: التعاون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

– المبحث الثالث: الفكر التعاوني عند ابن خلدون والغزالي

– المطلب الأول: الفكر التعاوني عند الغزالي

– المطلب الثاني: الفكر التعاوني عند ابن خلدون

الحلف: (الحلف) بوزن الحقف وهو العهد لأنه لا يعقد إلا بالحلف، والجمع أحلاف وحلفاء وهو من ذلك لأنهما تحالفا أن يكون أمرهما واحدا بالوفاء، قال ابن الأثير: أصل الحلف المعاهدة والمعاهدة على التعاضد والتساعُد والاتفاق، حالف فلان فلانا، فهو حليفه، وبينهما حلف لأنهما تحالفا بالأيمن أن يكون أمرهما واحدا بالوفاء، فلما لزم ذلك عندهم في الأحلاف التي في العشائر والقبائل صار كل شيء لزم شيئا فلم يفارقه فهو حليفه، (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ٥٣/٩).

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشد أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى، أو أرادت الأخذ بالتأثير منها، وقد كانت معظم القبائل داخلية في هذه الأحلاف، إلا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد، وكانت تتفاخر بنفسها؛ لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف، ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن، وقد تنزل القبائل على حلفائها، وقد جاءت حاجة الأعراب إلى الأحلاف أكثر وأشد من حاجة الحضرة إليها، وذلك بسبب أن الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقر البادية وشحها؛ لانبساط أرضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه فاضطرت القبائل إلى خلق حماية طبيعية لها هي الأحلاف، والأحلاف هي لغاية حماية المال والنفس في الغالب، ولكبج جماع المعتدين، وانحصرت الأحلاف الكبرى أو التكتلات القبلية الضخمة بالأرضين المكشوفة التي غلب عليها الطابع الصحراوي، وبين القبائل التي غلبت البداوة عليها، (جواد العلي، ١٩٧٧م: ٢٢٨/٧، ٢٢٧).

تحالفت قريش بعد موت قصي وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار من السقاية، والرفادة، واللواء، والندوة، والحجابة، ونازعهم فيه بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت، فسموا المطيبين، (ابن كثير، ١٩٨٨م: ٣٥٥/٢).

أما حلف الفضول فقد عقد في دار عبد الله بن جدعان كما رواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله بن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز (١) ظالم مظلوماً (ابن حبان، ١٩٨٨م: ٢١٨/١) "، وقالوا: وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر، وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة (السهيلي، ٢٠٠٠م: ٢٨/٢)، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحا وسهما وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه- أي انتهروه- فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس- وقريش في أنديتهم حول الكعبة- فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما، بل بحر صوفة، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه (ابن كثير، ١٩٨٨م: ٢٦٠/١).

بهذا نجد أن الضرورات الأمنية دفعت القبائل العربية إلى التحالف فيما بينها من أجل الدفاع عن مصالحها المشتركة؛ إذ لم يكن بمقدور القبائل الصغيرة أن تعيش باستقرار وسلام ما لم تتحالف مع غيرها من القبائل لحماية أمنها والدفاع عن مصالحها، ويعتبر وجود الكعبة في مكة المكرمة ذو أثر بارز في هذه التحالفات وذلك من أجل خلق بيئة آمنة للحجيج، وهذا ما فرضته ظروف الطبيعة وقسوة الحياة.

التعاون عند الصعاليك

الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، صعلكه: أفقره، والجمع الصعاليك، (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ٤٥٥/٧).

الصعلوك: "هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكى عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة (خليف، ١٩٥٩م: ٢١)".

من خلال ما سبق من التعريف اللغوي والاصطلاحي للصعلوك نجد أن سلوك هؤلاء الصعاليك اتجه صوب تحقيق مصالحهم ودفع الضرر عنهم وذلك من خلال تعاونهم وتضامنهم من أجل تحقيق أهدافهم التي لا يمكن لها أن تتحقق بشكل فردي في مجتمع ظالم يفتقر للعدالة الاجتماعية والعدالة التوزيعية، فوجدوا التعاون فيما بينهم سبيلاً لهم بعد عزوفهم أو نبذهم من مجتمعهم الأصل "القبيلة" وعدم تقديره لهم.

من الصعاليك "السليك بن سلكة" ومنهم "الشنفري" و"تأبط شراً"، غير أن أعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم، هو "عروة بن الورد" الذي نصب نفسه سيداً على الصعاليك، إذ اتخذ من صعلكته باباً من ابواب المروءة والتعاون الاجتماعي، فكان يجمعهم ويشركهم فيما يغنمه ويرزقهم من رزقه، ويبدل جهده لمواساتهم، فاجتمع حوله صعاليك "عبس"، وهو منهم واتخذ لهم حظائر أووا إليها؛ ولهذا نعت بـ"عروة الصعاليك"، قال أهل الأخبار: إنما قيل له عروة الصعاليك مع أنه عروة بن الورد؛ لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة، فيرزقهم مما يغنمه، فعروة لم يكن فقيراً محتاجاً معدماً، كما يفهم من لفظة "صعلوك (ضيف، ٢٠٠١م: ٣٨٣)"، ولقد ذكره "عبد الملك بن مروان" فقال: "ما كنت أحب أن أحداً ولدني من العرب إلا عروة بن الورد"، فعروة صعلوك فلسف الصعلكة بأن جعلها مثلاً من مثُل الحياة، بينما كانت تعني فقراً مدقعاً وجوعاً قتلاً وهياماً على وجه الأرض للاستجداء ولصعوبة تصعلك الرجل بمفرده، تكتل الصعاليك كتلاً، وذلك بانضمام بعضهم إلى بعض، مكونين جماعات، جمعت بينها وحدة الهدف، وغريزة حماية النفس، والمصلحة المشتركة بعد أن حرّمهم أهلهم ومجتمعهم من تقديم أية مساعدة أو حماية لهم، وسحب منهم حق الأخذ بالثأر والانتقام ممن قد يعتدي عليهم، بحق "العصبية"، وبعد أن جعل دمهم هدراً، وتبرأ منهم ومن كل جريرة يرتكبونها، فلا يطالب أهلهم بدمهم، ولا يطالبونهم بأي دم قد يسفحه الصعلوك، (الأغاني، ١٩٤٤م: ٧٣/٣).

وقد كون الصعاليك مجموعات على رأسها عروة بن الورد تغير على أحياء العرب؛ لترزق نفسها ومن يأوي إليها، وإغاثة ذوي الحاجة (الفاخوري، ١٩٨٥م: ١٢٩)، وانضم إليها الصعاليك من مختلف القبائل، ولكن أكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على أعراف قومهم، ومن الذين لا يبالون ولا يخشون أحداً، صاروا قوة يخشي منها، ويحسب لها حساب، خاصة وفيها شعراء فحول، يحسنون الهجاء ويتقنون فن ثلب الأعراض، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبثون بالموت، يفتكون بمن يريدون الفتك به، وخافهم الناس وامتنعوا جهد إمكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردّ عنهم وأحسن إليهم، فاستفاد منهم واستفادوا منه (جواد العلي، ١٩٧٧م: ٤١٣/٧).

كوّنت طبقة الصعاليك في المجتمع الجاهلي شخصية متميزة نبعت من ضيق وفقير مطّعين مما أراجهم إلى التعاون والتضامن فيما بينهم لمواجهة ظروف الحياة وقسوتها بعد أن خرجوا عن طور القبيلة وأعرافها، فحاولوا تشكيل طبقة بديلة عن القبيلة التي لم يجدوا فيها مكانة اجتماعية لأنفسهم، ولم يستطيعوا أن يحصلوا على أدنى حقوقهم في ضوء انعدام العدالة الاجتماعية والتوزيعية، فشكّلوا طبقة اجتماعية وجدوا فيها أهدافهم المشتركة، فهي أشبه ما تكون بثورة اقتصادية أعلنتها الصعاليك على المجتمع الجاهلي، فيها جموا الأغنياء البخلاء ويغنموا منهم ليوزعوه على الفقراء؛ فقد كان عملهم اجتماعي لا يعتمد على الشخصية الفردية بل دليل أنهم لم يتخذوا السلب والنهب وسيلة إلى الغنى، بل كانوا يقصدون منه البذل والعطاء للفقراء والمحتاجين، فالقاسم المشترك بين الصعاليك لم تكن القرابة أو القبيلة أو الدم وإن وجدت، بل كان في تحقيق أهداف نشدوا عنها تمثلت في دفع الضرر عنهم باعتبار تجمعهم قوة كبيرة، وتحقيق نوع من العدالة التوزيعية والعدالة الاجتماعية التي انحرمت منها في قبيلتهم، وكان للطبيعة الجغرافية والتركيبية السكانية أثر بارز أجبر هذه الفئة على التشكل فكان التعاون بينهم ضروري من أجل البقاء.

التعاون عند أهل قريش

كان سيدنا إبراهيم قد أسكن ولده اسماعيل مكة مع هاجر، وبني البيت العتيق بمعونة سيدنا اسماعيل عليه السلام، وقد آلت سيادة مكة إلى قصي بن كلاب بن مرة بعد أن انتزعها من خزاعة، وتعد فترة قصي المكية الأساس الذي قامت عليه

عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الإيلاف، وقد نُسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداءً لقصي ومنها: (جبران، ١٩٩٨م: ١٥٨، ١٥٦).

- دار الندوة: وكانت للتشاور في أمور السلم والحرب والزواج وعقد معاهدات أو اتفاقيات.
- الحجابة وهي: ملكية مفتاح الكعبة ومن يتولاها يكون مسؤولاً عن تنظيم الشعائر الدينية،
- الرفادة: وهي مسؤولية جماعية بأن تتولى بطون قريش إطعام غير المقتدرين أيام الحج، (العلي، دت: ٥٥/٧).
- والسقاية: وهي جلب المياه إلى أحواض خاصة حول الكعبة لسقاية الحجيج.
- اللواء: وهو الراية أو العلم الذي يُحمل في المعركة ويعتبر رمزاً لا يجوز التخلي عنه، (مهران، دت: ٣٦٤/١).

وقد تم تشكيل مجلس مركزي للقبيلة سُمي (الملا)؛ وقد كان بمثابة الإدارة الحكومية الوحيدة في مكة وهو يضم في عضويته زعماء البطون والعشائر وقراراته تعتمد على الإجماع، وقد حازت قريش على احترام القبائل العربية ومناطق الاستقرار، وقد ولدت حياة مستقرة بالنسبة للمجتمعات الأخرى، وكانوا يكسون الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها (ابن الأثير، ١٤١٩هـ: ٧٧، سالم، ١٩٩٧م: ٣١٩، ٣١٧).

أصبحت مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية داخلية في البداية، وما لبثت إلى أن تحولت إلى مركز تجارة عالمية؛ بعد احتلال الأحباش لليمن، وانهار سد مأرب واستفاد تجار قريش من علاقات العداء بين الفرس والروم وحفاظها على الحياد في تعاملها بين المعسكرين مكنها ذلك من الاتجار مع العراق والشام (سالم، ١٩٨٠م: ٣٤٣، ٣٤٥).

وقد كان لهاشم بن عبد مناف أبرز الأثر في انتعاش الحركة التجارية فهو أول من سنّ الرحلتين لقريش ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، وترحل الثانية إلى الشام إلى غزة وربما بلغ أنقرة (ابن سعد، ١٩٨٠م: ٧٥/١).

وكان قد أخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر فما كان باستطاعة قريش ارسال قوافلها إلى بلاد الشام أو العراق أو اليمن دون رضا هؤلاء السادات، فكان هذا الإيلاف صلاحاً للفريقين؛ فالمقيم راجعاً والمسافر محفوظاً، وقد أخذ هذا الإيلاف لسببين: أحدهما: أن دؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والسبب الثاني: أناساً من العرب لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً، مثل بني طيء وخثعم وقضاعة، وبهذا التصرف من هاشم بن عبد مناف بالتعاون مع سادات العرب ورؤساء القبائل استطاع أن يسيّر القوافل الضخمة والتي يساهم فيها كل من أراد المساهمة؛ من غني أو صعلوك أو متوسط الحال، فتوسع الربح وعمت الفائدة، فرفع بذلك من المستوى الاقتصادي والاجتماعي للبلاد، "وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام، أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام، وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، ومعنى يؤلف يجير، فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين، فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الأخوة، فلا يتعرض لهم، (العلي، ١٩٧٧م: ٧١/٢، ٦٤؛ البغدادي، ١٩٨٥م: ٤٢، ٤٤).

يعد هذا الإيلاف للقبائل عملية ترويض تتطلب جهداً وخبرة طويلة؛ فقريش علمت كثير من طبائع العرب وبخاصة البدوي من خلال الاحتكاك معهم في المواسم الدينية والاقتصادية مما أكسبها خبرة التعامل معهم وتأسيسها وتأليفها بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة، أي أن الإيلاف عملية تأليف وتطبيع واعتياد على وضع جديد، حيث أصبح التأليف فضيلة ومنقبة لهم، (درادكة، ١٩٨٨م: ٩٩، ١٠١).

إن هذه التنظيمات ودقتها كانت كفيلةً بجعل المجتمع المكي مجتمع متكافل ومتضامن ومتعاون على ظروف الحياة القاسية حتى أصبح البحث عن الفقراء واشراكهم في المشاريع التجارية جزءاً لا يتجزأ عن النشاط الاقتصادي العام للمجتمع، "أخرج ابن الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز قال: كانت قريش في الجاهلية تحتفد وكان احتفادها أن أهل البيت منه كانوا إذا سافت يعني هلكت أموالهم خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم بخلتهم حتى جاء هاشم بن عبد مناف فلما نبل وعظم قدره في قومه قال: يا معشر قريش إن العزم مع الكثرة وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً وإن هذا الإحتفاد قد أتى على كثير منكم وقد رأيت رأياً، قالوا: رأيك راشد

فمرنا نأتمر، قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعتمد إلى رجل غني فأضم إليه فقير عياله بعدد عياله فيكون يؤازره في الرحلتين رحلة الصيف وإلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله

على الرغم من قسوة العيش وضنكه وقلة المياه، إلا أن قریش انتعشت وأصبح مركز للكثير من الطرق التجارية، وكانت تؤمن لحجاج بيت الله المأكل والمشرب دون مقابل لمن لا يستطيع؛ وقد كان للتعاون والتكافل أثر بارز في الوصول إلى هذا المجتمع المستقر، والذي يعد الإيلاف ركناً أساسياً من مكوناته؛ فقد تم تأمين وصول قوافل قریش إلى كل الأسواق العالمية الممكنة، وهذا هو الإيلاف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى جَاءَ بِبَبِ بٍ پِبْ پِبِ يَّ يَّ نَفْ ثُثْ ثٌ تُتُّ {قریش: ٤-١}.

مما سبق نجد أن التعاون في عهد قريش يمكن أن نسمّيه الحل الضروري الذي فرضته عليهم ظروف الطبيعة وقسوتها في ظل قصور قدرة الفرد وإمكانياته الذاتية عن إشباع حاجاته، وهو تعاون قسري ابتداءً؛ فهو ضرورة اجتماعية تجاوزت الفردية وصراعاتها إلى مرحلة الجماعية فقد شكلت العشيرة نواة اجتماعية لمواجهة ظروف الطبيعة ومتطلبات الحياة القاسية ومواجهة الصعاب، ثم أصبح في مرحلة متقدمة فهو ضرورة اقتصادية لمواجهة الضعف الاقتصادي الذي عانى منه أغلب سكان المجتمع في ظل تدني القدرات المالية للبعض من أجل توفير فرص لتحسين وسائل المعيشة للمجتمع ككل، وما فعله هاشم هو خير دليل على هذا؛ فقد خلط الفقراء بالأغنياء فعمد إلى رجل غني فضمه إلى فقير بحيث يكون عياله بعدد عياله فيكون يؤازره في الرحلتين رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن فما كان في مال الغني من فضل عاش به الفقير عياله.

لقد تجلى وجود التعاون في التاريخ الإسلامي كمبدأ ديني أصله ومنهجه الكتاب والسنة؛ فالتعاون كمبدأ إسلامي ينصرف مباشرة إلى التقوى والإيمان والخير وتحقيق العدل وابتعد عن التعاون على الضرر والإساءة قال تعالى: ﴿جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْمَ تَأْتِي السَّحَابُ مِنْ دُونِ الْمُنْأَنَىٰ فَتَجَلَّىٰ أَعْيُنُ النَّاسِ عَنْ حُلِيِّهِمْ مَا هُمْ فِي مَخْلَقَتِهِمْ إِلَّا كَسَفَايِلٍ يُفْرَكُونَ﴾ (الحج: ٢٠)، فقد يكون المراد بالبر: معاملة الخلق بالإحسان، وبالتقوى، (ابن رجب، ٢٠١م: ٣٨٢/١)، فالتعاون في الإسلام يستمد قيمته ومشروعيته من التعاليم السماوية وهو يهدف إلى إشباع الحاجات الإنسانية بعيداً عن العصبية والطائفية والعنصرية، وقد جاءت الشريعة الإسلامية بتشريعات مواتية للتنمية التعاونية وهذا ما ثبت من خلال وجود التعاون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين من بعده والعهد الأموي.

يتجلى مفهوم التعاون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخَذُوكُم مِّمَّنْ آمَنُوا أَوْلِيَاءَ يَتَخَلَّفُونَ مَعَكُمْ فِي السَّرَادِ وَاتَّقُوا اللَّهَ عَسَىٰ تَهْتَدُونَ﴾ [الحشر: ١٧]، والذين تتبَّعوا الدار والايمن يقول: اتخذوا المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فابتنوها منازل والايمان بالله ورسوله، من قبلهم: يعني من قبل المهاجرين يحبون من هاجر اليهم: يحبون من ترك منزله وانتقل اليهم من غيره، وعنى بذلك الأنصار، وكان بنو النضير قد خلوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا بعض الفقراء الأنصار، فتكلم بعض الأنصار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اخوتكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا اليكم، فقالوا: أموالنا بينهم قَطائع (الطبري، ١٩٨٧م: ٢٧/١٢).

"عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فأخى النبي بينه وبين سعد بن الربيع، فقال سعد: أي أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذ، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب اليك حتى أطلقها، فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلِكَ ومالك، دلوني على السوق، فدلوه فباع واشترى وربح، وقال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مؤاساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في الهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، (ابن كثير، د.ت: ٢٦٦/٣، ٢٦٤).

هذا فيما يتعلق بالتعاون والتضامن الذي أوجده الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة بين المسلمين في المجتمع المدني على الصعيد الداخلي حيث أسقط كل اعتبارات التفرقة الدنيوية، وتعالى رابطة العقيدة على كل الروابط وبدأ البناء الاقتصادي والاجتماعي من خلال عملية إعادة التوزيع للدخول والثروات بين المسلمين، الذي يقوم على مبدأ التعاون والتكافل والبعد عن الاحقاد والأناية لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا بَيْنَكُمْ عَهْدًا﴾ [الحشر: ٩].

أما على الصعيد الخارجي والذي لا يقل أهمية عن الداخل فقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إقامة علاقات تعاونية خارجية لحماية أمن المدينة ومصالحها ومعالجته كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وذلك من خلال الوثيقة (دستور المدينة) ومنها: (ابن هشام، ١٩٩٥م: ٥٠١، ٥٠٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مؤلم من دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيعة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.. ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته".

ركز رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول من وثيقة المدينة على الجانب العشائري؛ حيث استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من الجانب الإيجابي للقبيلة في التكافل الاجتماعي، وأبقى على بعض الوظائف للقبيلة، والتي تحمل معاني التعاون والتكافل في الخير والتواصي بالبر؛ حيث جعل كل قوم يتعاونون على فداء أسيرهم ودفع معاقلمهم، وشكل هذا العمل التعاوني أساساً للتكافل المجتمعي، ومن ثم توجه الرسول صلى الله عليه وسلم في الوثيقة إلى حماية المدينة وأوجب الدفاع عنها بالنفس والمال؛ فلو تعرضت المدينة المنورة لاعتداء أو هجوم فإن الجميع بمقتضى حق المواطنة يدافع عنها بالنفس والمال، فالكل مسؤول عن الدفاع عن المدينة فهو واجب الجميع دون تفريق بين دين أو عرق أو جنس، بحيث تصبح المدينة آمنة في حدودها الخارجية بالتعاون مع جيرانها بعد أن وثق الصلات والعلاقات الأخوية وعزز الروابط المجتمعية بين المهاجرين والأنصار، وهدم فجوة التفاوت الاقتصادي والاجتماعي الذي كان بينهم، ووقضى على العصبية القبلية والنزاعات الجاهلية

المطلب الثاني: التعاون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لقد تجلت معاني التعاون والتكافل في زمن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام الرمادة وهو العام الثامن عشر من الهجرة على أرجح الأقوال، وهو العام الخامس من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عمّ فيه الجذب والقحط والجوع لمدة تسعة أشهر حتى فني ما في بيت مال المسلمين من طعام ومال.

"فكانت تسفي إذا ريحت تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة، فآلى عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيى الناس من أول الحياة، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عكة من سمن ووطب من لبن، فاشترهما غلام لعمر بأربعين، ثم آتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن، فابتعتهم بأربعين، فقال عمر: أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن أكل إسرافاً وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسخني ما مسهم! كتب إلى السري، عن شعيب، عن سهل بن يوسف السلمي، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: وكانت الرمادة جوعاً أصاب الناس بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمقفر" (الطبري، ١٣٨٧هـ: ٩٨/٤).

وكان عمر رضي الله عنه يعس الناس بالليل كعادته فلم يسمع أحداً يضحك ووجم الناس فلم يستطيعوا الكلام، وكف السائلون عن السؤال، وازداد حال عمر رضي الله عنه همّاً وغمّاً، واستمر هذا الحال تسعة أشهر، واستغاث سيدنا عمر رضي

الله عنه وطلب العون من المسلمين بالأمصار، فكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ولعمرو بن العاص في مصر ولأبي عبيدة بن الجراح في الشام، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة في أربعة آلاف راحلة من طعام، فأمره أن يقسمها فيمن حول المدينة؛ حتى يستقر الناس في مواطنهم بعد أن هاجر كثير منهم إلى المدينة حتى يجدوا ما يسد حاجتهم، (ابن كثير، ١٩٩٣م: ٣٧٥/٢)؛ وقد أراد سيدنا عمر رضي الله عنه بتوزيع الطعام على البادية قبل أهل المدينة أن يرد هؤلاء المهاجرين إلى أرضهم، فعندما يروا أن الخليفة قد خصهم بالطعام قبل المدينة يستقرون فيها ويتلاشى أزمة سكانية كبيرة يمكن أن تحدث، (الوكيل، ١٩٨٦م: ٢٦٨، ٢٦٧).

وأرسل إليه عمرو بن العاص بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث بعشرين سفينة تحمل الدهن، وبعث إليه بخمسة آلاف كيساء، وأرسل إلى سعد بن أبي وقاص فأرسل له بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءة، وأرسل إلى والي الشام فبعث إليه بألفي بعير تحمل الزاد (ابن سعد، ١٩٨٠م: ٣١٥/٣).

لقد كان لهذه الأزمة الاقتصادية تبعاتها وآثارها البارزة على السوق؛ فلم يبق ما يُباع ويشترى، وبهذا فقدت النقود قيمتها، حتى هبَّ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لتقديم العون والمساعدة، فكان في تلك الاستجابات توجيه فعلي لمعنى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" (مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم ٢٥٨٥)، ويتجلى في هذا الحديث أسمى درجات التعاون.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" (مسلم، صحيح مسلم: ٢٥٨٦)، وهو تنفيذ فعلي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "لَا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغُرَّرَ خَشْبَهُ فِي جِدَارِهِ"، (البخاري، صحيح البخاري، ١٣٢)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعْذُ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُعْذُ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ" (مسلم، صحيح مسلم، باب استحباب المؤاساة بفضول المال، حديث رقم ١٧٢٨).

كل هذه الأحاديث فيها دلالات واضحة وصريحة إلى أهمية التعاون في الإسلام ودوره البارز في حل أصعب الأزمات من خلال تفتيت المخاطر وتوزيعها بحيث يسهل تحملها.

مبادئ التعاون في الاسلام

نجد أن مبدأ التعاون في الإسلام يرجع للصورة الأولى في منشأه؛ فهو أمر فطري ومبدأ ديني وهذا ما جعله يرقى بض الأحيان إلى مرتبة الواجب؛ لما له من أثر بارز وتأثير واضح في حياة الفرد والمجتمع، فالتعاون كسلوك فطري وتنظيم حضاري يمكن أن يحتمل أحد جانبيين سلبي وإيجابي وهذا ما يشهد به التاريخ الإنساني على مر العصور؛ مثل التعاون في الحروب والغزو وغيرها، ولكن التعاون كمبدأ ديني فهو منحصر في نطاق الخير والعدل، وله ضوابط شرعية وسياس أخلاقية لا يخرج عنه، ويعد مبدأ التعاون في الإسلام قاعدة مشتركة دعا إليها في كافة شئون الحياة، فالنشاط الاقتصادي يُبنى على المشاركة في بذل الجهد كأساس للمشاركة في الثمار؛ كما في مبدأ تقسيم العمل، ويقوم هذا المبدأ على مجموعة من الأصول والمرتكزات التي ترجع بمجملها إلى تماثل الحاجات الإنسانية وعدم قدرة الفرد على إشباعها بنفسه، مع رغبة المجتمعات في التطور من خلال تحقيق التكامل بين الجهود والإمكانات الفردية المبعثرة، وذلك بتحويلها إلى قوة منظمة فاعلة قادرة على تحقيق الأهداف الإنتاجية والاقتصادية التي يحتاجها الإنسان لإشباع حاجاته المشروعة، ويختلف مبدأ التعاون في الاقتصاد الإسلامي عنه في النظام الاشتراكي والرأسمالي، فهو جاء في مرحلة متأخرة من مراحل تطور النظام الاشتراكي وليس من أصل النظام؛ إذ أن أصل النظام يقوم على المركزية والملكية الجماعية لعناصر الإنتاج، وقد جاء النظام التعاوني في الاقتصاد الاشتراكي في مرحلة متأخرة على شكل يعرف بالكخوز من أجل التحفيز على العمل ومحاولة الاعتراف له بذاتيته المستقلة وحقوقه المشروعة وحوافزه الخاصة، بعد ما تلاشت شخصية الفرد وكيانه وذابت في الجماعة، فهو أكثر ما يتعلق بالفلاحة خاصة ويتلخص في تجميع الفلاحين للإنتاج داخل وحدة تعاونية على أساس أن حق الملكية جماعي وأن لهم جميعاً حق التصرف، بحيث يحصل كل واحد منهم على دخل يتناسب وقيمة العمل الذي قدم، وتعتبر الأرض ملك للدولة وتعود إلى الشعب بأجمعه، أما وجود مبدأ التعاون في النظام الرأسمالي فهو دخيل على أصل النظام الذي يقوم على الحرية والفردية المطلقة في ممارسة كافة الأنشطة مع انحصار دور الدولة بالأعمال السيادية، وعليه انقسم المجتمع إلى طبقتين، طبقة مالكة قوية مهيمنة وهي تمثل القلة في المجتمع، وطبقة أخرى تمثل الجزء الأكبر من المجتمع وهي الطبقة الفقيرة غير القادرة على سد احتياجاتها الاقتصادية في ضل اعتمادها على جهودها الفردية وإمكاناتها الذاتية، فكان لزاماً عليها أن تنجس للتعاون باعتباره أحد أهم الحلول في إشباع الحاجات الإنسانية، وإعطاء صبغة جماعية للفرد؛ الذي أصبح مصدر الأحكام وأصبحت مصلحته الشخصية تفوق كل شيء.

أما مبدأ التعاون في الاقتصاد الإسلامي فهو يعد أصل من أصول النظام الاقتصادي الإسلامي وأحد أعمدته الأساسية التي يقوم عليها، وهو واجب التطبيق لقوله تعالى ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسَتَكُنْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ {آل عمران: ١٠٣}، بهذا نجد أن لمبدأ التعاون في الاقتصاد الإسلامي لا ينفصل عن المصلحة الخاصة فهو متمم لها ويعالج أي قصور قد ينشأ فيها، وله مقومات عديدة من أهمها نظام قيم مشترك وأهداف مشتركة تقوم على تحقيق النفع الحقيقي وتوزيعه العادل بين المتعاونين، ولهذا المبدأ سياج ديني وأخلاقي لا يخرج عنه، أساسه التعاون على الخير والبعد عن الإثم والعدوان، وهو يقوم على تدعيم القيم الإنسانية الجماعية إلى جانب ذاتية الفرد وحوافزه الخاصة بما يحقق له شخصيته الذاتية، في منهج من التوازن يقيمه الإسلام بين الفرد والجماعة، ولمبدأ التعاون مجموعة من الأصول الشرعية التي يركن إليها ويعتمد عليها، وهذه الأصول نابعة من كتاب الله عز وجل ومن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومن القواعد الكلية والمقاصد الشرعية التي تدعم صحة هذا المبدأ، حتى يكون بناء هذا المبدأ على يقين لا يراوده الشك.

نجد أن التعاون في الإسلام مع ما حققه من أهداف دنيوية تتعلق في اشباع الحاجات الإنسانية والمشاركة في تحقيق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع، فقد حرص على الجانب الديني في التعاون لتحقيق الأجر والثواب من الله عز وجل.

المبحث الثالث: الفكر التعاوني عند ابن خلدون والغزالي

برز الفكر التعاوني عند علماء المسلمين وظهر ذلك الفكر في كتاباتهم ومنهم ابن خلدون والغزالي لما له من قيمة دينية واجتماعية في حياة الأمة؛ كيف لا وقد جاء فيه خطاب قرآني والكثير من أحاديث السنة النبوية المطهرة والكثير من أعمال الصحابة، ولا نبالغ إذا قلنا إن دستور المجتمع الإسلامي قائم على التعاون والتكافل.

المطلب الأول: الفكر التعاوني عند الغزالي

يقول الامام الغزالي في وصف مملكة النمل وما وهبها الله عز وجل من تنظيم وترتيب لشؤون حياتها بفضل التعاون "انظر إلى النمل وما ألهمته له في احتشادها في جميع اقواتها وتعاونها على ذلك وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد حتى تراها في ذلك إذا عجزت بعضها عن حمل ما حمله، أو جهد به، أعانه آخر منه فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون" (الغزالي، ١٩٧٨م: ٩٨) شبه الامام الغزالي هذه المنظومة التعاونية في مجتمع النمل وهي من مخلوقات الله عز وجل التي تتصف بالضعف ولكن تظهر قوتها وتنظيمها في تعاونها وقد شبهها بعمل الإنسان وتعاونه مع غيره من أجل الوفاء بحاجاته.

ويشبه الإمام لغزالي وظائف أعضاء الجسد في القيام بواجباتها بالتعاون بين أفراد العالم بحيث يقوم كل فرد بعمل متكامل مع غيره يشبه عمل العضو داخل الجسم فيقول: "وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وأحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك" (الغزالي، ٢٠٠٥م: ٥٥/١) وهذا يعني تكامل العمل وهو نوع من أنواع التعاون البناء، حيث أن أعضاء الجسم في الإنسان خلقها الله تعالى كل له عمله بحيث يكون مكمل لما قبله، فتعطل الفرد عن القيام بما أوكل اليه تماما مثل تعطل عضو الجسم عن القيام بمهامه مما يتسبب في هلاكه أو هلاك جزء منه، أو بأضرار بالغة ببقية أعضاء الجسم، وبالتعاون تعم الفائدة وتحقق المصالح وتُدفع المخاطر والأضرار.

وتحدث الإمام الغزالي عن أهم جوانب التعاون الاقتصادي بين أفراد المجتمع وهو جانب تقسيم العمل فيقول "لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغني عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعي وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفي تحصيل الملبس والمسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة" (الغزالي، ٢٠٠٥م: ٥٥/١)، وبهذا نجد أن الجانب التعاوني هو الأساس في تقسيم العمل؛ فلا يُعقل قدرة الفرد على الوفاء بجميع حاجاته بنفسه فلا بد من التعاون مع غيره من أجل الوفاء بالتزاماته.

ويقول الإمام الغزالي في التسخير: "فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس العمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصانع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها فسيحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء انتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمتي رحمة" (الغزالي، ٢٠٠٥م: ١١/٤)، يرى

ويعرف الإمام الغزالي حال المجتمع التعاوني المنظم الذي ينتفع منه الجميع دون استثناء فهو مجتمع تعاوني مثالي فيقول: "حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلطان يصلح الصناعات والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء" (الغزالي، ٢٠٠٥م) وفي هذا النص للغزالي دلالة واضحة على أهمية التقسيم الطبيعي للعمل؛ الذي يخفف الأعباء ويوزع المهام من أجل إشباع الحاجات الإنسانية، ولا يستطيع الفرد لوحده من تحقيق هذا الهدف فهو يحتاج لفترة طويلة جداً لكي يتحصل على رغيف من الخبز، وماذا عن باقي أمور حياته؟

يقول ابن خلدون في مقدمته: " الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع؛ أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، و بيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله" (ابن خلدون، ٢٠٠٤م: ٦٥)، يصف ابن خلدون الاجتماع الإنساني وتعاونه بأنه ضروري، فالإنسان كائن بشري اجتماعي لا يستطيع أن يعيش منفرداً، فهو يحتاج لغيره في جميع شؤون حياته من مأكل ومشرب ومسكن وملبس وأمن، وقد هداه الله سبحانه وتعالى إلى التعاون مع غيره لتلبية هذه الحاجات وهي فطره في النفس الإنسانية تطورت مع متغيرات الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات.

هذا في ما يتعلق بجانب التعاون حيث جلب المصلحة للفرد والمجتمع، أما فيما يتعلق بدفع الضرر المتوقع عنهم فيقول ابن خلدون: "وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته" (ابن خلدون، ٢٠٠٤م: ٦٦) ونلاحظ أنها تتعلق بما قبلها أيضاً من جهة تحقيق المصلحة؛ كونه يتعذر على الإنسان الحصول على حاجاته مالم يكن في وضع آمن يؤهله إلى ذلك، وهذا ما يوجب عليه الاستعانة بأبناء جنسه ليستمد من ضعفه قوة من أجل تحقيق الأمان أولاً والسعي لإشباع حاجاته ثانياً، ولكن الإنسان مَيَّزَهُ الله تعالى بفكره وعقله على سائر مخلوقاته؛ وهذا الفكر هو الذي أوجد له الحلول للتغلب على الصعاب التي تواجهه، فهو يحتاج للسلاح من أجل الدفاع عن نفسه، وهو لا يستطيع

الحصول على كل احتياجاته بنفسه؛ فهو يحتاج إلى الحدّاد للحصول على الرماح والسيوف التي يستطيع من خلالها الدفاع عن نفسه.

ويقول في أصرح العبارات في فائض تقسيم العمل: "وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وإنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعاف" (ابن خلدون، ٢٠٠٤م).

٦. النتائج

- التعاون يتركز في جوهره على أمرين، أولهما: أنه أمر فطري غريزي نشأ مع الإنسان فهو كائن اجتماعي بطبيعته وثانيهما: أنه أمر مكتسب أملت عليه ظروف المعيشة الصعبة والصراعات والتناقضات وتمثل الحاجات الإنسانية.
- كان للظروف البيئية والتكوينات الاجتماعية دوراً بارزاً في تطور مفهوم الفكر التعاوني، فقد ارتبط ظهور التعاون في المجتمع العربي قبل الإسلام بالحاجة، فهو ضرورة فرضتها ظروف الحياة وطبيعته القاسية، فهو من الحلول الضرورية لمواجهة الظروف البيئية القاسية.
- للتعاون في المجتمع العربي الإسلامي صبغة خاصة أخذها من مبادئ وأركان الدين الإسلامي الحنيف.

التوصيات

١. إعطاء التعاون الاقتصادي دور أكبر في الدول الإسلامية لأنه أصل المنهج ولما له من آثار إيجابية على نمو هذه البلدان وتقدمها.
٢. سن القوانين والأنظمة التعاونية بما يخدم هذه التعاونيات بشكل عام، ولا يحد من حركتها.

بيان تضارب المصالح

يقر جميع المؤلفين أنه ليس لديهم أي تضارب في المصالح.

المراجع

- ابن الأثير، الحسن بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. (د.ت). *الكامل في التاريخ*. بيروت، لبنان: دار الفكر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. (٢٠٠٤). *مقدمة ابن خلدون* (ط ١)، تحقيق حامد أحمد الطاهر)، القاهرة، مصر: دار الفجر للتراث.
- ابن سعد، محمد بن سعد. (١٩٨٠). *كتاب الطبقات الكبرى*. بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (١٩٨٨). *تفسير القرآن العظيم* (تحقيق محمد حسين شمس الدين)، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، الحافظ ابن كثير الدمشقي. (١٩٨٨). *البداية والنهية* (تحقيق علي شيري)، بيروت، لبنان: دار احياء التراث العربي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (د.ت). *لسان العرب* (ط ٣). بيروت، لبنان: دار صادر.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. (د.ت). *السيرة النبوية* (ط ٢)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي)، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. (١٤٢٢). *صحيح البخاري* (ط ١)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر)، دار طوق النجاة.
- البغدادي، محمد بن حبيب. (١٩٨٥). *المنمق في أخبار قريش* (ط ١)، تحقيق وتصحيح خورشيد أحمد فارق)، عالم الكتب.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. (١٩٧٩). *أنساب الأشراف* (تحقيق: احسان عباس)، بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكية.

جبران، نعمان محمود. (١٩٩٨). *روضة سحيم حمد آل ثاني، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام*. اربد، الأردن: مؤسسة حمادة.

دراذكة، صالح موسى. (١٩٨٨). *بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام*. عمان، الأردن: دار شيرين.

رزق، يوسف طعمة بني عايش؟ (٢٠١٢). *العون الإنساني في ضوء السنة النبوية "دراسة موضوعية"* [رسالة دكتوراه غير منشورة]. جامعة اليرموك.

سالم، السيد عبد العزيز. (١٩٨٠). *تاريخ العرب في عصر الجاهلية*، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.

سالم، السيد عبد العزيز. (١٩٩٧). *دراسات في تاريخ العرب: تاريخ العرب قبل الإسلام*. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر.

السيبر، انس بن سعد؟ (٢٠١١-٢٠١٢). *نظرية التعاون في الفقه الإسلامي "دراسة تأصيلية"* [رسالة ماجستير]. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

سفر، اسماعيل ودليلة، عارف. (٢٠٠٠). *تاريخ الأفكار الاقتصادية*، منشورات جامعة دمشق.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (د.ت). *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير. (١٩٨٧). *جامع البيان في تفسير القرآن*. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي. (١٣٨٧هـ). *تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك* (ط٢). بيروت، لبنان: دار التراث.

العام، رشيدة. (د.ت). *الحرية الفردية في المذهب الاشتراكي والاجتماعي*. مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة.

العلي، جواد. (١٩٧٧). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

العلي، صالح أحمد. (د.ت). *محاضرات في تاريخ العرب*. العراق: مؤسسة دار الكتب.

الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (١٩٦٤). *ميزان العمل* (ط١). مصر: دار المعارف..

الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (١٩٧٨). *المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى* (تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي).

الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (١٩٧٨). *الحكمة في مخلوقات الله*. (ط١، تحقيق محمد رشيد قباني)، بيروت، لبنان: دار احياء العلوم.

الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (٢٠٠٥). *احياء علوم الدين*، بيروت، لبنان: دار ابن حزم.

القاضي، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي. (١٩٨٧). *المعاري الإشبيلي المالكي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم* (تحقيق محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي)، بيروت، لبنان: دار الجيل.

القرآن الكريم

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي. (١٩٦٤). *الجامع لأحكام القرآن* (ط٣، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش)، القاهرة، مصر: دار الكتب المصرية.

مسلم، الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. (د.ت). *صحيح مسلم*. (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

معطي، علي محمد. (٢٠٠٣). *تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام* (ط١). بيروت، لبنان: دار المنهل اللبناني- مكتبة رأس النبع للطباعة والنشر.

مهران، محمد بيومي. (د.ت). *دراسات في تاريخ العرب القديم*. دار المعرفة الجامعية.
هيكل، محمد حسين (د.ت). *الصديق/ابوبكر* (ط٧). القاهرة، مصر: دار المعارف.
الوكيل، محمد السيد. (١٩٨٦). *جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين* (ط١). جدة، السعودية: دار المجتمع.
يسري، عبد الرحمن. (٢٠٠٦). *إسهام عبد الرحمن بن خلدون في الفكر الاقتصادي*. مؤتمر *الإسهامات الاقتصادية لابن خلدون*، مدريد.

(١) معنى يعز يغلب.